ساحة القضا

او

﴿غيرة النساء﴾

حدث احد كتاب الانكليز عن نفسه قال

وقفت أثناء رحلتي الأخيرة الهندية الى اقتناء اثر مخطوط لا يعرف له عهد من القدم مكتوب باللغة السنسكريتية واظنه جزءاً من سفر جليل القدر قد ضاع اليوم اكثره وتناهبته ايدي البلى والعفاء . وقد كان الغرض من وضعه تخليد اعمال احد مشاهير الملوك الذين اعيتني حيلة البحث للاستدلال عن هويته . وكان هذا الملك يحكم على شعب عريق في المدنية والحضارة مهذب الاخلاق والعادات ولكن حكماً دستوره الاستبداد مما ادخل الفساد على قلبه فكان لا يظهر في جميع اطوار حكمه وسياسته الا بمظهر ثقيل من الهمجية مع بلاهة في العقل وخرق في الرأي الا متى دعت الحالة الى استنباط الجديد في التعذيب والاقتصاص او ايجاد سبب غريب من اسباب اللهو لم يسبقه اليه احد ولم يخطر على قلب بشر قبله ولكن ليس من اللهو المسلي المفرح لقلوب الناس بل لامثاله من الوحوش الضواري

وقد كان من ابدع ما ولدت له قريحته الوقادة في هذا الباب ساحة شادها في قلب عاصمته وسماها « ساحة القضاء» فكان اذا رفعت الى المحاكم

قضية شديدة الغموض مشعبة الاطراف وبدا له عند ابرام الحكم فيها فرجة ينبعث منها شعاع الشك ويلوح وجه الارتياب او جاء الحكم على غير ما يشتهيه نقضه في الحال بلا رحمة او شفقة واوعز الى وزيره الاكبر ان يدعو الشعب الى ساحة القضاء وان يبلغ القضاة كي يرجئوا تنفيذ الحكم الذي اصدروه . فاذا ما تلقى الوزير الامر انحنى له وضرع

وفي الغد كنت ترى الشعب وافداً من الفجر الى تلك الساحة يتقدمه الملك الذي كان يحضر هذا المشهد مع نسائه وحاشيته ومستشاريه تحتاطه فرقة من الموسيقيين فيجلس بابهة وطنطنة في المحل المعد له ومتى استقر به المقام اعطى اشارة تخفت لها اصوات الموسيقى ويسود السكوت التام ثم يتقدم بعد ذلك لدى اشارة اخرى منه حارس من معتقل مجعول تحت محل الملك فيفتحه ويخرج منه المتهم الاصلي في القضية التي يكون تم النظر فيها ويتقدم حتى يتوسط الساحة اذ يرى امامه بابين متشابهين تمام المشابهة بلا ادنى فرق بينهما وهو مخير في فتح الذي يريده منهما وقد يكون اما باب قفص لنمر من اشد السباع الضواري وقد زاده الاعتقال فيه منذ خمسة ايام تهيجاً والجوع فتكا فيثب وثبة واحدة يلقي فيها فريسته الى الارض ويأخذ بالتهامها على مشهد من الجمع المحتشد الذي يضج اذ ذاك بالتصفيق والهتاف وقد تجاوبه اجراس المدينة كلها باشد ما يكون من الترع الذي يدوي في جميع اطرافها مع صراخ منادين يطوفون العاصمة وهم يعيدون قولهم « نفذ العدل وتم القضاء » واما يكون باباً يفتح عن عروس تخرج منه بدلاً من ذلك الوحش المفترس وقد زاد بهاء جمالها ما يزينها من فاخر الحلى والجواهر وهي لابسة ثوب العرس فيحتفل بعقد زواجها في الحال على المتهم في ساحة القضاء نفسها اذ يتقدم احد

الكهان من بين الحاشية الملوكية على عزف الموسيقى بينا تكون الفتيات قد ملأن الساحة وهن يغنين وينشدن اناشيد السرور والابتهاج ثم يتوجه المتهم وقد حمد حسن طالعه تحيطه الفتيات وهن يرقصن الى منزل فخيم يكون قد امر الملك باعداده خاصة للعروسين

ولا حاجة للقول ان محل كل من السبع والعروس لم يكن على الدوام واحداً بل ان الملك كان يعين في كل مرة قبل موعد الاجتماع بيوم المكان المعد للعروس وللسبع . وكان من تفننه في اللهو والاغراب فيه ان يستثير السبع الجائع من خلال قضبان قفصه ليسمع زئيره ويرى وثباته . اما الفتاة التي كانت تعد لساحة القضاء فكان يعهد بشأنها الى اقرب النساء اليه واكثرهن حظوة في عينيه فلم تكن تبرح دائرة القصر الا لتقصد مع القيمة عليها اكابر تجار العاصمة المعهود اليهم باعداد جهاز عرسها ولوازم زفافها

وكان لهذا الملك من اعز نسائه عليه ابنة يحبها حباً يقرب من العبادة تدعى سميرة وكانت جميلة كالنهار عند مطلعه ملء اهابها الشباب وملء شبابها السرور والصفاء . وكان ابوها شديد التعلق بها والعطف عليها لا يخالف لها بداة من بدواتها ولا رغبة من رغائبها حتى انه كثيراً ما كان يفكر الليل وهو في سريره عن وسائل جديدة تعينه على توفير اسباب سعادتها وسرورها

وظلت الاميرة سميرة زمناً ليس بالقصير وهي راتعة في ارغد عيش يتواتر عليها من ابيها نفيس الهدايا ووافر العطايا بين حلى باهرة وملابس فاخرة ومركبات صنعت من الفضة والذهب كالتي يروى عنها في اساطير الاولين وروايات الجن . ولكن جاء يوم لم تعد تكفي فيه هدايا الملك لارواء غليل الاميرة وارضاء مطامعها المتزايدة فتبدل حالها واخذت تتولاها الكآبة

وتساورها الافكار السود حتى حولت صفوها كدراً وصيرت نور حياتها ظلاماً فانزوت في غرفتها تصعد من صدرها الزفرات ولكم حاولت ان تطفئها بمدامعها الهاطلة فما كانت تزيد الا اتقاداً . ولحظ ابوها هذا التغير في حالها فسألها ذات يوم عن داعي اكتئابها وعما بها فلم تجبه الا بقولها . مابي من شيء يا ابي واني بخير ما دمت ترعاني برعايتك . والحقيقة ان قلبها كان هدفاً لاحدّ السهام القتالة

وكان بين ضباط الحرس الملوكي شاب من اسرة عاثرة الحظ غير عريقة النسب ولكنه كان عريقاً في جماله الفتان وطلعته الساحرة حتى ليداني الاميرة سميرة في حسنها وبهائها وبقدر ماكان اشرابار (وهو اسم الضابط) اسمر اللون كانت سميرة شقراء وهو ما كان كل الفارق بينهما . ولكن اذا كانا قد اختلفا في الخلق فقد جمعت بينهما وحدة الخلق وتشاكل العواطف والوجدانات وماكان عمر اشرابار يزيد عن عمر سميرة الا بخمسة اعوام فقط فلم يكادا يسمعان اله الحب يتلو عليهما ايته الكبرى ويوحي اليهما بسر الهوى وقد تقابلا لاول مرة حتى اضطرمت جذوته في القلبين معاً فتعاشقا عشقاً انساهما كل ما عداه من الشؤون الاخرى . ولما كانت اداب البلاط الملوكي تحول دون تخاطبهما بحرية فقد اتفقا على ان يجتمعا كل يوم عند الفجر في مكان من حديقة القصر تخفيهما الاغصان الملتفة عن عيون الرقباء وعلى ذلك كانت الاميرة سميرة تنهز غفلة حاشيتها وقد تسلط النعاس على الاجفان فتبرح غرفتها عند مطلع الصباح وتنحدر مسرعة الى ملاقاة حبيبها في المكان الذي كان ينظرها فيه وهو نشوان من السرور والهوى حتى اذا اجتمعا في حمى الاشجار ولا رقيب الا عيون النرجس المفتحة وضعا اليد في اليد وتعاهدا

على الحب بجمل ليس نسيم الصبح لم تدنسه انفاس البشر بارق منها وقبل كانت الختم على ذلك العهد . وكثيراً ما كانت سميرة ترتجف جزعاً على اشرابار لو تخلى الله عن رعايتهما بعينه وعلم احد الخدم الخائنين بسر اجتماعهما وابلغه الى الملك ابيها ولكن كان يصرفها عن هذه المخاوف والوساوس اعتقادها ان للعشاق الهاً او ملاكاً يحرسهم ويتولى رعايتهم . ودامت هذه الحال نحو الستة شهور كانت الاميرة تتقلب في خلالها لغير ما سبب ظاهر معروف من الانبساط الزائد الى الانقباض الشديد ومن الحركة والتهيج الى السكينة والكآبة الى ان مثلت يوماً امام الملك ابيها واثار الدمع بادية في عينيها فانتفى عنده الريب من وجود سر تخفيه عنه فاقسم ان يتوصل الى اكتشافه مهما كلفه الامر وعول على اتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق مطلبه، وان سميرة انصرفت الى غرفتها تذرف الدمع مدراراً دون ان يداخلها اقل ظن في الذي نواه لها ابوها من تجسس احوالها وتقصي حركاتها ذلك ان اثراً من الشك علق بها فكان يعذبها ويدمي فؤادها وكلما حاولت ان تقصيه عنها عاودها وهو اشد فتكاً من قبل واقوى تسلطاً عليها وما كان ذلك الشك الا انها كانت تتهم حبيبها اشرابار بالميل الى سواها وهذا ما كان يملأ نفسها حزناً وغماً واما باعث هذا الشك فهو انها بينما كانت تجتاز على انفراد في احد الايام رواق القصر الكبير شهدت حبيبها يحادث ضاحكاً وصيفتها الاولى المسماة جميلة وهي التي كانت تعدّ بعد الاميرة سميرة اجمل نساء البلاط الملوكي لما خصها به الخلاق العظيم من ملامح توهم في تناسبها انها من صنع احذق رسام ومن قوام عادل ما عابه الا جور صاحبته في تيهها ودلالها على عشاقها المساكين حتى اصبحت مضرب المثل في الصدّ

والاعراض . فما هي الا نظرة نظرتها سميرة لاشرابار يحادثها حتى تولاها الوهم وقد ساعدها فيما توهمت اقوال تذكرت انها سمعتها فيما مضى من حبيبها عن جميلة وامور أخرى جعلت لها علاقة بالذي رأته فصيرت الوهم حقيقة . وعلى مثل هذه الافكار وفي مثل هذه الحالة من الغم والاكتئاب اقامت في غرفتها طول النهار فلم يجف لها دمع ولا زار الكرى جفنها بل راحت تترقب بزوغ الفجر بذاهب الصبر وشديد الاضطراب والقلق وهي تسائل نفسها أيوافيني اشرابار كعادته الى الموعد وهل يفلح في التنصل من تهمته وهي تتمنى مع ذلك ان يهدم بكلمة منه ما شادته في فكرها من شاهق الاوهام ذلك لان حبه كان متأصلاً في فؤادها ومتمكناً من لحمها ودمها

لم تركد الغزالة ترسل اشعتها الفضية مبددة اميالها الغيوم والفجر يتنفس باعثاً من صدره نسيم العليل فيطفئ النجوم حتى كانت غزالة غيرها هي سميرة قد غادرت كناسها ووافت الى الحديقة تلقى غزالها الشاردوقد اذهلها تسرعها الى مشاهدة اشرابار ومعاتبته عن اخذ ما يلزم من اسباب الحذر والاحتياط عند خروجها من القصر فما عتم الملك الذي كان اقام من الامس جاسوسا يراقب ابنته انى تحركت ان علم منه خروجها فارتدى ثيابه على عجل والتف بعباءة ثم تبع ابنته فاختبأ في خميلة مجاورة للمكان الذي كانت تنتظر فيه بحيث يراها ولا تراه وان الانتظار لم يطل على سميرة ولا على ابيها بل وافى اشرابار على اثرها فحيت قدومه العصافير بزقزقتها والشمس باشعتها فلما ابصره الملك تنازعه عاملان من الدهشة والغضب واوشك ان ينقض على الاثنين فيذيقهما كأس الحمام لولا انه تمالك رغبة الوقوف على ما سيجري بينهما

ثم دنا منهما وهو في مخبأه فسمع سميرة تقول لاشرابار وهي تبكي

انك لا تحبني يا اشرابار بل انت اتخذت من حبي سبباً للتيه والاعجاب بنفسك وما كانت تلك الايمان التي اقسمتها لي عن حبك الا افكاً وبطلاناً وهو ما تنفر منه نفسي . اما جميلة .... فقاطعها اشرابار قائلا انك واهمة يا حياتي وعندي ان هذه الغيرة خليقة بمثل قلبك الكريم ولعلك لا تجهلين ان جميلة مولودة في البلدة التي ولدت انا فيها وقد عاش اهلوها واهلي زمناً طويلاً متجاورين فما كان بيننا الا عهد الصداقة والود . وبعد فاي بأس بل اي جريمة في ان ترينا نتحادث معاً . فابعدي بالله عنك هذه الوساوس والاوهام وثقي بان لا شريك لك في قلبي بل انت نفسي وسروري وحياتي فاذا ما اعرضت عني فقد عرّضت بي للهلاك والموت . ثم انه انطرح على قدميها وأخذ يسقيهما بدموعه السخينة مما كان يدل ظاهره على وفاء حقيقي وحب صادق ولكن انى لاميرة حديثة السن ان تستوضح المسطور في قلوب الرجال وقلوب الرجال كالهاوية لا يدرك لها قرار ولا يستهدى لها سبيل فاعتصمت سميرة بالصمت وراحت لا تعيد ولا تبدي وهي بين عامل الخوف من ان تكون مخدوعة وعامل الرغبة في الصفح عمن تحبه وانها لعلى هذه الحال اذ برز ابوها من مخبأه وتقدم من العاشقين فصعقا من الذعر عند مشاهدته وركع اشرابار عند قدميه خافض الطرف ينتظر ان يغمد سيفه في صدره . اما سميرة فارتمت على ايدي ابيها تقبلهما مانعة بذلك يده ان تبلغ سيفه ثم قالت ابي لا تصب جام غضبك على اشرابار فهو اخلص رعاياك واشجع جنودك وأطوع خدمك وليس من مذنب سواي فانا التي دفعته الى ان يبوح لي بحبه وانا التي استدعيته الى هذا المكان واستدرجته بيدي الى هذا الموقف الحرج فعليّ يجب ان يحل العقاب . وكان الملك يصغي لهذا

الكلام الرقيق فما يزداد الا تهيجاً وغضباً ثم اشار اشارة فاسرع عشرة من الجنود فاوثقوا اشرابار وسحبوه فزجوه في اظلم السجون وقفل الملك راجعاً الى القصر دون ان يفوه بكلمة واحدة . وما كانت سميرة لتخشى بأساً على نفسها من ابيها لعلمها بما كان لها من المكانة لديه ولكنها كانت تموت جزعاً على حبيبها حين تمثل الذي قد يحل به . ثم انه أخذ يمرّ بفكرها ما تداولها في اليومين الاخيرين من الهموم وما انتابها من مصائب لم تكن الفتها ولا كان لها بها عهد سابق فهذه جميلة وصيفتها الاولى قد خدعتها وهذا حبيبها قد حنث بايمان الوفاء وهذا ابوها ناقم عليها فكانت هذه الافكار باعث هواجس يضيق عنها الصدر وبلابل ينفد معها الصبر على انها بقيت بالرغم عن كل ذلك شاعرة باشد الحب لاشرابار وقد عزمت ان تحاول المستحيل لانقاذه من كل مكروه يتهدده وفي المساء استدعاها ابوها اليه وهو في قاعة العرش يحيطه مشيرو مملكته وعظماؤها وقد عادت اليه سكينته وهدؤه فما مثلت لديه حتى ابتدرها قائلاً انني استدعيتك الي لاعلمك بالعقاب الذي وجدته خليقاً بالجريمة التي اكتشفت امرها هذا الصباح وقد رأيت ان يكون تنفيذه علانية كما كان ارتكاب المنكر علانية ايضاً . فعند هذه الكلمات صعد دم الخجل الى وجه الفتاة واغضت حياء ثم استطرد ابوها الكلام فقال وانني راجعت تاريخ اسرتنا الشهيرة منذ وضع الله في يدها مقاليد هذه البلاد فلم اعثر على معيبة سبق حدوثها كالتي ارتكبتها انت ولم يذكر قط ان اميرة من سلالتها ابتذلت مقامها الى حد ان تسمح لجندي لا نسب ولا حسب له ان يغازلها ويتعشقها كما انه لم يروَ ان صعلوكاً من الحرس بلغت به القحة الى ان يتجرأ على استهواء اميرة من الاسرة المالكة . وبناء عليه ارى ان الجريمة

التي لم يسبق لها مثيل خليقة بعقاب عديم المثال ايضاً . واننا لو راعينا العدالة وعملنا بعادات هذه البلاد لوجب ان ينشر عشيقك بين لوحين من خشب او ان ينزع لحمه عن عظمه او ان يحرق على مهل بنار خفيفة الوقود . الا اني لا انسى انك ابنتي واني احبك كثيراً ولك عندي الكرامة الكبرى فدونك ما عولت عليه وهو ان اوكل حسم هذا المشكل وفصل الخطاب الى ساحة القضاء مما يجعل لحبيبك املاً في استبقاء حياته وسبيلاً للاختيار بين العروس والوحش . اما انت فما قصاصك عندي الان ان تحضري هذا المشهد الى جانبي وتري بعينيك اشر ابار اما فريسة بين انياب ذلك الوحش واما مزفوفاً الى عروسه . فما كادت تسمع سميرة هذا الحكم حتى صرخت صرخة دوت لها جوانب القصر ووقعت مغشياً عليها وهي تنزع شعرها الجميل وتختلج كمن به مسّ او جنون . ثم تقدمت اربع جوار فحملنها في محفة ونقلنها الى غرفتها حيث بذل لها من صنوف العناية ما استعاد لها الحياة بمزيد الجهد والعناء . ومن الغد انتشر صيادو السباع زرافات في اطراف المملكة واخذوا ينصبون الفخاخ والعواثير لاصطياد النمورة وكانوا كلما اصطادوا واحداً منها عرضوه على الملك في اقفاص خصوصية اما الاميرة سميرة فلم تخلد الى جانب السكون والاستسلام للقضاء بل نفضت عنها غبار الخمول فثابت اليها عزيمتها وشحذت فكرتها فلباها العقل والروية وما لبثت ان ارتسمت في مخيلتها خطة الدفاع لانقاذ حياة اشر ابار . وما من مخلوق من الادميين الا ويعلم ان المال مفتاح المغالق وقاضي الاغراض والاوطار وما كانت السميرة بالتي يفوتها العلم بهذه الحقيقة او يعوزها المال وهو مكدس عند ابيها اكداساً وهي منه في اوفر خير واوسع سعة وكان اول ما خطر على

بالها ان ترشو الوكيل على ساحة القضاء المنوط به ان يدخل قبيل الاحتفال كلاً من العروس والوحش في مكانه وقررت تنفيذ هذا الرأي مهما كلفها من السعي والجهد والمال . وقد لاقت في الحقيقة في بادئ الامر من هذا العامل ممانعة شديدة اذ استدعته الى موافاتها في منتصف الليل عند باب محجوب بالقرب من اسطبلات القصر فلم يسعه الا ان يلبي دعوتها مع علم بالذي تبغيه منه ولكنه جاء وهو عاقد العزم على ان لا ينقض عهد واجبه ولا يطاوع لها رأياً . ولقد قاوم بالفعل كثيراً ومانع ما وجد الى ذلك سبيلا عندما كلمته بالذي تريده منه ولكن ماذا يفعل عزمه عند عزم يفلّ الحديد فلم يجد مناصاً من الاذعان لارادتها ولا مندوحة عن التسليم بمطالبها وقد بهرته بوعودها وعللته بما شاء من الاجر والجزاء مما ضاعت معه النزاهة وولت اثرها الفضائل والواجبات واصبحت اثراً بعد عين وانتهى الحال على وعد الاميرة باعلامها قبل الموعد الذي يضرب للحفلة بيوم في اي المكانين يوضع الوحش ثم توجه اتماماً لخيانته فلقي اشرابار في سجنه وبشره بعزم الاميرة على انقاذه وافهمه بان ليس عليه عند مثوله في ساحة القضاء الا ان يسدد بصره الى حبيبته ثم يفتح الباب الذي تدله عليه باشارة منها رشيقة وبعد ما استتب الامر لسميرة واتمت كل هذه التدابير ظهرت لمن حولها هادئة البال بسامة الثغر مما كان مدعاة لاتهامها من النساء المطيفات بها انها خلو من قلب عطل من الشعور والاحساس

وانقضت ايام قرب معها اليوم الموعود الى ان لم يعد يفصل بينه الا ليلة واحدة فاختلت سميرة في غرفتها وصرفت عنها وصائفها بحجة التماس الراحة في النوم ولكن انى يغمض لها جفن والقلب ساهر والفكر يقظان

فلزمت نافذتها تنتظر قدوم الوكيل على ساحة القضاء الى ان دقت الساعة الاولى بعد نصف الليل ولم يبدُ له اثر فتاهت سميرة في ليل بهيم من اليأس والحيرة وظنت انها وقعت في حبالة من الغدر والخيانة . وانها لعلى تلك الحال من القلق اذ لاح لها شبح ينسلّ بين الاشجار وكان هو صاحبنا المنتظر فلوحت له بمنديل كان العلامة بينهما فتقدم الى ان صار تحت نافذتها فاعلمها ان الوحش سيكون في الجانب الايسر والعروس في الجانب الايمن فابتهجت نفس سميرة ثم شكرته وقالت له ستلقى غداً جزاء خدمتك هذه واني اتعهد باخراجك من المملكة دون ان يشعر بك احد اذا كنت تخشى من يوم يجيء يفتضح فيه السر وينكشف الامر . فانحنى الوكيل وقد همّ بالانصراف اذ استوقفته الاميرة وسألته وهل تعرف اسم الفتاة التي ستوضع في المكان الايمن فاجاب نعم وما هي الا وصيفتك الاولى جميلة . قال هذا وولّى مسرعاً لانتهاء مهمته اما الاميرة فانها لم تسمع باسم جميلة حتى طار رشدها وفارقها العقل والوعي فارتمت على سريرها واطلقت لدموعها العنان فبكت امر البكاء حتى جفّ الدمع من عينيها وقد ادركت اذ ذاك مقصود ابيها من قوله اني اجتزئ من قصاصك بان تكوني الى جانبي تشهدين ماسيكون من امر اشرار . وهل كان للملك ان يتصور عقوبة اشنع من هذه وكيف لا تكون كذلك وهي واقعة بين شرين ليس الواحد اهون عندها من الاخر فان فاتها مشهد حبيبها مفترساً بناب الوحش فليس يفوتها منظره مزفوفاً الى غيرها وكلا الامرين مستحيل عليها احتماله . وقضت الليل بسواده تتنازعها الكآبة والهم من جراء مشكلتها وهي تتخبط في وجوه حلها فلا تجد اليها هدى ولا تدري على ايها تعوّل ولا على اي حال تستقر . هل تنقذ حياة

اشرابار مخاطرة بنفسها ان تموت من الغيرة والغم اذ تراه متزوجاً بالفتاة التي تكرهها اشد الكراهة لاجله او تقضي على حبيبها القضاء المبرم باشارة منها فتقضي ايضاً على قلبها وعلى حبها . فكانت تصغي تارة الى صوت الغيرة الجازم بالتخلي عنه وطوراً يتغلب الحب على قلبها فكانت تتحول في الساعة الواحدة مئات من المرات من فكر الى فكر وتنقلب من رأي الى غيره حتى احدثت هذه الهواجس شبه عاصفة في دماغها . وعند الفجر واذ النواقيس تقرع قرعا شديداً علامة على قرب تلك الحفلة المحزنة كانت سميرة قد عقدت عزمها البات بحيث لا شيء في الدنيا عاد يستطيع تحويلها عنه وارتسمت اية التصميم على وجهها تقرأ واضحة الحروف جلية السطور وفي صباح الغد بينما كانت الاجراس تؤذن بميعاد الحفلة كانت جموع الناس تتوافد زرافات ووحداناً الى ساحة القضاء لحضور ذلك المشهد الرائع وقبل حلول الميعاد المعين بقليل اقبل الملك بحاشية تزيد في ابهته وجلاله فتحولت الانظار كلها اليه والى ابنته الاميرة سميرة التي كانت في الغرفة الى جانبه مائلة الجسم الى الامام فاتنة بحسنها كأن اسوداد افكارها لم يزدها الا بهاء وجمالاً

ولما استقر المليك في مكانه اشار اشارة ففتح باب السجن وبرز منه الى الساحة اشرابار يشرق نور الجمال من وجهه ويترقرق ماء الشباب من محياه وقد تلقته تلك الجموع بعلامات الاعجاب وهم يقولون ما شاء الله . ولما كان من شروط تلك الحفلة الغريبة ان ينحني المحكوم عليه ثلاث مرات امام الملك عند مثوله في تلك الساحة فلم يغفل اشرابار هذا الشرط وعندما التفت الى البابين القائمين ازاءه حول نظره الى الاميرة سميرة يتقاضاها وفاء وعدها طبقاً لما كانت عاهدته عليه عن يد الوكيل فدلته باشارة خفية الى اليسار .

ذلك انه كان قد نفذ السهم وتم الامر اذ اقتضت ارادتها الحكم على اشرابار بالاعدام فلم يلن فؤادها التفات حبيبها اليها في تلك الساعة وملء نظره الاستعطاف والاستئمان بل كانت اشد ما عهدت نفسها عزيمة واصلب قلباً واقل شعوراً بالالم وقد غابت عن الوجود وتولاها من الذهول ما جعلها لا ترى والدها الى جانبها ولا الجماهير الحافل بهم ذلك المكان ولا ساحة القضاء تمثل فيها افظع المشاهد وابلغ العبر بل كانت مسلوبة العقل منهوبة اللب بسبب الفكر الذي ساورها في ذلك الحين فاستأسرها بكليتها اذ انها كانت تتمثل حفلة زفاف فترى الكهان بموكبهم والشعب شديد الابتهاج وتسمع اصوات التهليل واناشيد السرور والنصر ثم تشاهد جميلة سائرة الى جانب اشرابار وهي تبسم عن ثغرها الدريّ - نعم لقد تضمنت تلك الاشارة الى اليسار وهي اشارة القضاء على حبيبها خلاصة ما توارثته اميرات الهند من صلابة القلب وانفة النفس ووعت كل ما في قلب المرأة من الغيرة التي يبرح بها حب من تهواه الى حد ان لا ترضى لها ضرة تنازعها حبه او تشاطرها فؤاده فهي تريد ان يكون لها وحدها او للردى.

اما اشرابار فتقدم ثابت الجأش دون تردد نحو الباب الذي دلته عليه سميرة وكان كلما ازداد دنواً منه كان يزداد جزع الحضور واضطراب خواطرهم فرقاً عليه. ثم ساد السكوت وخفت الاصوات واشرأبت الاعناق نحو الساحة ليروا ما يكون. ولعمري ان من شاهد تلك الجماهير الغفيرة وقد جمدت راجفة في مقاعدها عندما مدّ اشرابار يده لفتح الباب لظنهم اذ ذاك تماثيل من حجر لا حراك بها

فتح الباب فخرج منه نمر ضخم الجثة هائل المنظر الى درجة ان الاولاد

الحاضرين لم تقع اعينهم عليه حتى امتلأت قلوبهم جزعاً ورعباً فقزعوا الى امهاتهم يبكون ويصرخون ثم انه وثب وثبتين فتوسط الساحة واذذاك بصر باشرابار فمشى اليه ولكن اشرابار لم يتحرك من مكانه ولم يفكر قط في الهرب ولم يبد على وجهه علامة واحدة من علامات الجبن او الخوف التي تبدو على وجوه اشد الابطال شجاعة متى تمثل لهم الموت مكشرا عن نابه ولا لفت نظره الى جهة الملك ولا حاول ان تتلاقى عيناه بعيني الاميرة بل وقف ينتظر ما سيكون وهو مكتف الذراعين رابط الجأش ولم يعد له من شاغل الا ان يموت موت الابطال غير مبال بشيء من شؤون الحياة او امور هذه الدنيا ولا وجل من هذا النمر الجائع الذي سيفترسه شر افتراس

عند ذلك شهد الجمع الحاضر المشهد الهائل المؤثر الذي درجت عليه السنون والقرون دون ان يطوى تذكاره والذي لا يزال الشيوخ والبراهمة يحدثون به الشبان والاولاد حتى الان . ذلك انه بينما كان اشرابار يحاول النهوض من الارض ليموت واقفاً عزيزاً والدم يسيل منه وقد نشبت فيه اظفار النمر اذ قذفت الاميرة سميرة بنفسها الى ساحة القضاء فما وقعت حتى نهضت ومشت نحو النمر الذي كان يتطلع اليها دهشاً واذ رأته يتحفز للوثوب عليها وقفت ممدودة الذراعين وصرخت صرخةً اودعتها كل حياتها قائلة اني اموت معك يا حبيبي ثم ان النمر زأر زئيراً ارتج له المكان ووثب عليها فالقاها الى الارض وعضها بانيابه فسحبها الى جانب اشرابار كأنما هو فقه كلماتها الاخيرة واحب تحقيق امنيتها القصوى او اراد ان يجمعها بحبيبها في موت تخمد فيه سورة الشهوات ويبطل فيه عذاب الآلام فتتمتع انفس المحبين وقد انفكت من عقال الاوهام بلذات لا حدّ لها ولا فناء

هذه هي قصة انبرابار الجندي وسميرة الاميرة كما سطرها الكتاب القديم وهي قصة ساحة القضاء وغيرة النساء .

حديث الانيس

لقد كان حظ الجزائر من فرنسا في احتلالها اياها مما يذكر ويدوّن فقد رووا عنها انها بعد الاحتلال الفرنسوي زادت مليوناً ونصف مليون هكتار من الارض الصالحة للزرع وبلغ عدد المهاجرين الفرنسويين القاطنين فيها اكثر من ٣٥٠ الف نفس ونحو ٢٥٠ الفاً من سائر الاوربيين منهم ١٦٠ الف اسبانيولي و٣٥ الف ايطالي و١٣ الف مالطي وقد بلغ طول الخطوط الحديدية فيها ٢٥٠٠ ميل وطول الطرق العمومية ٦٥٠٠ والشيء فيها ١٥ ثغراً وقد بلغ مقدار الصادر والوارد اليها في العام ٢٥ مليون جنيه منها نحو عشرين مليوناً من فرنسا واليها . اما عهد فرنسا بالجزائر فينتهي الى سبعين عاماً قطع منها اربعة عشر عاماً في محاربة اهلها الابطال وقائدهم العظيم المرحوم عبد القادر الشهير

*
* *

مما يدل على عناية الاجانب بتربية المواشي واعتبارهم اياها اهم من محاصيل الارض ما ورد من اخبار جمهورية الارجنتين باميركا الجنوبية فانه كان يخرج فيها من الزبدة عام ١٨٩١ مبلغ ١٣٢٠ كيلو فزادت في سنة ١٨٩٤ حتى صارت ١٩٥٠٠ وفي سنة ١٩٠٢ صارت ٤ ملايين و١٢٥٠٩٢ وفي سنة ١٩٠٣ بلغت ٥